مجلة اللغة العربية و آدابها
السنة الخامسة، العدد التاسع، خريف و شتاء ١٤٣٠ــ١٤٣١ هـ/ ٢٠١٠ــ٢٠٠٩م
صفحة ٥٧ ــ ٧٢

الوطنية الصادقة في شعر أحمد محرّم

حامد صدقي[١]، احمدرضا صاعدي*[٢]
١. استاذ في قسم اللغة العربية بجامعة تربيت معلم طهران
٢. طالب الدكتوراه في اللغة العربية و آدابها بجامعة طهران
(تاريخ الاستلام: ٨٨/١/٢٦ ؛ تاريخ القبول: ٨٨/٥/٣)

الملخص

ولد أحمد محرم في طبقة متوسطة، و عاش حياته فقيراً فعانى كثيراً من الحرمان و الفقر و العوز، فانحاز إلى جانب الجماهير و اختلط بالشعب و عاش آلامه و آماله فشعر بالظلم و الإضطهاد و والعسف الذي يتعرض له الشعب المصري، واكتسب من عامة الناس ثقافته و رسالته الوطنية، فنشأ على حب الوطن والتعاطف مع مواطنيه. و من خلال شعره نلاحظ كونه واضحا في رؤيته و توجهه الوطني مُنْذُ مطلع حياته إلى يوم رحيله إلى الرفيق الأعلى، على عكس الشعراء الآخرين أمثال أحمد شوقي و حافظ ابراهيم؛ و كان توجهه الوطني توجهاً صادقاً واضحاً ينمّ عن روح وطنية صادقة، و موقف صلب في مواجهة المحتلين و المتسلطين على الشعب و حريته و امكانياته المادية و المعنوية، التزم في شعره بمواقفه الوطنية و القوميّة، و نظم قصائد وطنية جيدة يعبر فيها عن آمال و أماني الشعب المصري و سائرالشعوب العربية.

الكلمات الرئيسة:

أحمد محرم، مصر، الوطنيّة، حادثه دنشواي

* الكاتب المسؤول هاتف: ٠٩١٢٦٥٤٧١٩٩ Email: Ahmadreza_saedi@yahoo.com

المقدمة

عاش «احمد محرم» مرحلة من أهم المراحل السياسية التي مرت بها مصر و البلاد العربية، وكانت السنوات التي عاشها أحمد محرم حافلة بالأحداث القومية، و الهزّات الوطنية.

ولد أحمد محرم سنه ١٨٧١م (قبش، د.ت، ص٩٨، و الجيزاوي، ١٩٦٤م، ص ٣٩٢). و في السنة ذاتها زار مصر جمالُ الدين الأفغاني (د. شوقي ضيف، ١٩٥٧م ص١٦) و ظل بها نحوثماني سنوات دعا فيها دعوته المشهورة في الإصلاح الديني و الإفادة من ثقافة الغرب في الدفاع عن الإسلام.

ثم كانت الثورة العرابية سنة ١٨٨١م بدايه تحول خطير في الوعي السياسي المصري. فلما غُلبت الثورة و انتهَت كان لإخفاقها أثران جوهريان «الإحتلال البريطاني و سريان روح الخضوع و اليأس في نفوس المصريين بعد الإحتلال. (الدسوقي، ٢٠٠٣م، ٢/٨٢). ثم دوي في مصر صوت الشاب الوطني مصطفي كامل ليزلزل الإحتلال، ثم كانت حادثه دنشواي المعروفة سنه ١٩٠٦ و هي تلك التي توفّي فيها ضابط إنجليزي كان يصطادُ الحمام بهذه البلدة إثر ضربة شمس.. (د. شوقي ضيف، ص١٧) فلما مات مصطفى كامل خفت صوت مصر.

ثم كانت الحرب الكبري الأولى، فازداد الإحتلال عتواً و استكباراً.. إلى أن وضعت الحرب أوزارها و نهضت مصر من بحثمها، حتى ارغمت إنجلترا سنة ١٩٢٣ على أن تعترف لها ببعض حقوقها. (حسن الزيات، ٢٠٠٥، ص ٣٠٩)

ثم كانت الأحزاب السياسيه اوّلها الحزب الإنجليزي، ثانيها: حزب الخديو، و ثالثها: الحزب الوطني الذي يحارب الإستعمار، و يتذرع إلى ذلك بكل وسيلة ممكنة، و هذا الحزب قد يعتمد على نفوذ الخديوي آناً، و على نفوذ تركيا آناً آخر و على نفوذ فرنسا في بعض الأحيان... و يؤيده شباب مصر المثقف و طلبة المدارس في مختلف المعاهد. (محمد حسين، د. ت، ص٢١٣، الدسوقي، ٢/٨٥). و ايقظ مصطفى كامل و رجال الحزب الوطني، و رجال الخديو عباس و على رأسهم الشيخ على يوسف الشعور الوطني، و كان طبيعياً أن يظهر هذا الشعور في الأدب و لاسيما في الشعر. و على الرغم من أن أحمد محرم كان يعد مستقلا عن الأحزاب السياسيه إلّا أنّه كان في الواقع متحاوباً مع الحزب الوطني، كما نرى في شعره بل في جميع آثاره الأدبيه.

(ابوشادي، ١٩٥٩، ص٨، و منعم خفاجي، ١٩٥٦ص٨). هذا و كان لإتصاله بالحزب الوطني الذي تزعمه مصطفى كامل اثر بعيد في اتجاهه الوطني و في معاداته للإحتلال الإنجليزي.

ثم كانت معاهدة سنة ١٩٣٦، و ماتبعها من احداث شهدها الشاعر (حسن الزيات، ٢٠٠٥،ص٣٠٩) إلى أن توفي سنة ١٩٤٥م (رضا كحاله، ١٩٧٥م، ٢/٥٧) يعني في تلك السنة التي وضعت الحرب العالمية الثانيه أوزارها.

عاصر أحمد محرم هذه الأحداث، فتأثرها، و أثرفيها. و سنحاول استعراض المظاهر الوطنية في شعره:

١ـ حبُّ مصرَ

إنّ شعر محرم الوطني نابع من حبه لمصر، ذلك الحب الذي ملك عليه كل حواسه، و استأثر بعواطفه منذ صباه. و نحن نلمس شعوره الوطني الفياض، و التزامه برسالته الوطنية مِن إهدائه الجزء الأول من ديوانه إلى النيل بقوله:

«و لقد جرى اكثر الكتاب و الشعراء على أن يهدوا مؤلفاتهم إلى من شاءوا من ذوي الثروة و الجاه... و لكنني انصرفت بشعري عن تلك المواقف، و برئتُ إلى نفسي أن آخذ بهذه الأسباب، على ما أعلم من وعورة مسلكي، و ضيق مضطري، و ما كنتُ في ذلك إلاّ جارياً على سنتي في سياسة نفسي... فما استظهرت بغير أخ حفِيّ أو صديق صفّي، ولا آثرتُ أن أُهدي ديواني إلى غير النيل، ذلك الأب الأبرّ الذي وهبني نعمة الحياة، و أفاض عليَّ هذه المنح و الصلات». (ديوان محرم، ١٩٨٤، ٢/٥٠٣).

و له قصيدة بعنوان (إلى النيل) يقول فيها (ديوان محرم، ١٩٨٤م، ١/١١٦):

فيا نيلُ أنتَ المُنى و الحياة ... و أنت الأمير، و أنتَ الأبُ
و يا نيلُ أنت الصديق الوفي ... و أنت الأخ الأصدق الأطيبُ
و أنتَ القريضُ الذي أقتفِي ... فَيَزهَى بِه الشَّرقُ و المغربُ

و هكذا يقدم الشاعر الجزء الأول من ديوانه بهذه القصيدة إلى النيل، فيقضي بهذه السنة الوطنية النبيلة على ذلك التقليد الأدبي العتيق الذي جري عليه فريقٌ من الكتاب و الشعراء فقدموا مؤلفاتهم إلى اصحاب المال والقدرة، طمعاً في معونتهم، أو طلباً لِشهرتهم من طريق الإنتساب اليهم، العمل الذي إن دلّ على شيءٍ فهو يدل على صغرالهمة و الشعور بالضعف عند فاعله. و هو لايليق بشاعرنا أحمد محرم الذي انصرف إلى النيل ـ و النيل الذي يخاطبه هو

مصر ـ بأمانيه و جعله الهوي و الحياه، و الأمير و الأب و... فتلك هي الترجمة الصحيحة والوصف الحقيقي للوطنية..

و كم تغنّي محرم بِحُبّ مصر الذي يجري في دمه و يملك عليه فؤاده، و نراه يقول في تصوير حبه لِمصرَ. (ديوان محرم، ١/٢٧٣)

فإن يسألوا: ما حبُّ مصرَ؟ فإنّه ... دمي، و فؤادي، والجَوانح و الصّدرُ
لِنفسي وفائي، إن وفيتُ بعهدِها ... وبي، لابِها، إن حُثتُ حُرمَتها الغدُر
هي العيش، و الموت المبغّضُ والغني ... هي الدين و الدنيا، هي الناس، و الدهرُ

لقد كان حب مصر يملك عليه شغاف قلبه، حتّى ليعز عليه أن يفرط في أيِّ حقٍّ من حقوقها و من ذلك قوله فيها: (ديوان محرم، ١/١٣٨)

وهبتُ الصِّبا والشَّيبَ و الشّوقَ والهَوى ... لِمصرَ، و إن لم أقض حق الهوى مصرا
بلادٌ حَبَتني أرضُها و سماؤها ... حياتي و أجري نيلها في دمي الدُّرا

و في ايمانه ببلاده و حنينه إلى استقلالها، يقول، (ديوان محرم، ١/١٦١):

و ما المرءُ إلّا قومُه و بلادُه ... فإن يذهبا يلق الأذي حيثُ يَمَّمَا
ولم ار كالأوطان اكبر حُرمةٍ ... واكرمُ ميثاقاً و أعظَمُ مُقسِما
مِنَ العار أن تَشقى بلادي و أسلما ... و كالموت إن يقضي عَليها و أنعما..

٢ـ أطلالُ مصر البالية

إنّ الشاعر أحمد محرم يكثر في شعره من ذكر الأطلال البالية، و الأيام الخالية، وهو لا يتغني كعادة غيره من الشعراء بما يعجب الناس من شعر النسيب، أو الوصف، أو المديح، أو غير ذلك مما يحرّك النفوس، و يثير شهواتها. و ذلك واضحٌ كل الوضوح بتقدمته الجزء الأول من ديوانه إلى النيل، ذلك الأب البر الذي علمه الحياة و...

و هو لا يعني بهذه الأطلال و الأيام الخالية إلّا أنقاض ذلك المجد المصري المتهدِّم و أيامه الأولى... و أنّه يتناول هذا المعني في صور شتّي، و أساليب مختلفة، فيجيء به تارة واضحا جليّا، و أخرى رمزاً خفياً، فمن النوع الأول قوله في قصيدة عنوانها « على اطلال المجد المصري»: (ديوان محرم، ١/٦٦):

أهذي ديارُ القومِ غيَّرها الدهرُ ... فَعُوجوا عليها نبكها أيُها السَّفرُ
مَحَا آيها مَرُّ العصور و كرُّها ... إذا مَرَّه عصرٌ كرَّ من بعده عصرُ

نُسائلها: أيــن استقــــلّ قطينهـــــا؟ و هل تنطـق الـدارُ المعطّلـة القَفــــرُ؟
.. بكــي وطنــاً أودت بســالف مجــدهِ حوادثُ دَهــرٍ مــن خــلائقه الغَــــدرُ
أُغارت عليــه مــن جنــــوبٍ و شمـال فما بـــرحت حتى أُتيــح لهـا النصــرُ
مضــي عزُّهــا المســلوبُ؟ مــا يســتعيده بنوها، فــــلا عزٌّ لديهـــم ولافخـــرُ
هو رقدوا عنــها فطــال رقــادُهـــم فُديتُكمو هُبُّوا فقــد طلــع الفجــرُ
امــا فيكمــوا حُــرٌّ إذا قــام داعيــاً إلى صــالحٍ أوفى، فجــاوبــه حُــرُّ؟
كريمان، لمــا يَخُنــــما عــن عظيـــمةٍ ولا هما، اذ يــُدْعَــوان لهــا، وَقْــرُ
هما هَضبتا عَــزمٍ، و حــزمٍ، كلاهمــا يخافهما الخطــبُ المخــوفُ، فمــا يَعْــرو
هي الــذخرُ للأوطــان إن جَــلّ حــادثٌ فضاقَت بــه ذَرعــاً، و أعوزَهــا الذُّخــرُ

نعم هذه هي الأطلال التي يبكيها الشاعر و يستبكي لها، و تلك هي الأيام التي يــذكرها، يذكرها الناسين من قومه الذين رقدوا فطال رقادهم، والذين يقول لهم في صــيحة قويــة، و حماسة شديدة «فُديتكمو هُبُّوا! فقد طلع الفجر». نعم طلع الفجر والقوم نيــام يتقلبــون في مضاجعهم لايهتمون بما تصنع الحوادث و يفعل الدهر... فهو يرمزبهذه الأطلال الباليــة إلــى ذلك المجدالمصري السابق، ليستجيش بعواطف أبناء وطنه الناسين ذلک المجدالباهر الذي سلب في يوم ما، راجياً أن يستعيده قومه.

و له صيحة أُخرى من صيحاته الوطنيةعنوانها «جواب الداعي» والقيت هذه القصيدة فيما يبدو، ردّاً على كاشف الشاعر (على هامش الديوان، ١/١٠٥) الذي تاثربماقرأ محرم مــن قصــائده الوطنية، فرفع صوته، يدعو قومه إلى مناصرته و الإستجابة له و مطلعها (ديــوان محــرم، ١٩٨٤، ١/١٠٥)

بكيــتَ فابكيــتَ الطّلــولَ البواليــا فمــا إن تــري إلّــا عُيونــاً بَواكيــا

وهو في هذه القصيدة يرمز خفياً إلى ذلك المجد المصري المسلوب الذي بنــاه الشــعب في سالف الدهر على هام النجوم، وذلك الشعب الذي لم يرض مطلباً سوى المجد و لم يُوثر غــيرَ العُلا... ثم يتوجه إلى الشعب المصري المعاصر، يذكرهم بماضيهم العريق راجياً أن يســتيقظوا من النوم و يفكروا في ماضيهم.. ولكن الشعب لا يستمع اليه و لايستجيب له فيقول:

إذا مــا رفعــتُ الصّــوتَ ابغــي انبعاثَــه ليبعــثَ مَيتــاً، أو ليرجــعَ مــا ضــيا
تبلّد مُغَبّــراً، وأرعَــدَ خائفــــاً و أحجَــم مُــزْوَرّاً، و أعــرضَ نائيــاً

و إن يَدعُـــهُ داعـــي الغَوايـــه يَســـتَجِب و يَغـــشَ الـــدنايا طائعـــاً، والمخازيـــا

و في الختام كأني به يشعر بأنّ الشعب لاتفيده النصائح فيقول:

فلوكان يـــــهدي ذاالغوايـــه ناصـــحٌ وجـــدّك، مـــا ألفيـــتُ في مصـــر غاويـــا
فَهَـــوِّن عليـــك الخطـــبَ، لاتَبتَـــئس بـــه فمالـــك أمـــرُ الجاهلـــينَ ولاليـــا

٣ـ توجيه أغنياء مصر إلى الواجبات الوطنية:

لحرم في توجيه أغنياء مصر إلى واجباتهم الوطنية، و حَضِّهم على بذل المـــال في ســـبيلها صرخات عالية سمعتها مصر في كثير من الظروف و المناسبات. فحينما بدأ التفكير في التعلـــيم الصناعي لِتأخذ مصر بنصيب من الصناعات و اتجهت الأفكار إلى إنشاء مدرسةِ محمد علـــي الصناعية (حسن الزيات، ص ٣١)، رأي الشاعر أنّه امام واجب وطني فأنشد قصيدة تحت عنـــوان (من اجل مصر) يحث بها القادرين على الإكتتاب بالمال لانشائها: (ديوان محـرم،١/٦٧) و فيهـــا يقول،

إنّ الصـــــنائعَ للـــــحياة وسيلـــــةٌ فتـــــعاونوا طـــرّاً علـــــى إحيـــــائها
لاتبخلـــوا يـــا قـــوم إن كنـــتم ذوي كَـــرمٍ، فمـــا الـــدنيا سِـــوَي كُرَمـــائها

و هو يري أنّ الجهل داءٌ البلاد و من البلّية أن تموت بدائها، و أنّ المال هو من الودائع عند الإنسان و عليه أن يستخدم المالَ لشفاء البلد... ثم يقول:

و تَـــدفّقوا بالمـــكرمات، ونافِـــسوا في بـــَذلِ عارفة، و كـــسب ثـــنائها
قوموا قـــيام الأكرمـــينَ و جَـــرِّدوا هِمَماً تودُ البـــيضُ بعـــــــضَ مضـــائها
عَزَّ الـــثراءُ، فجئـــتُ مِصـــرَو اهـــلَها مُنـــبَرّعاً بالـــشِّعرِ عـــن شعـــــرائها

و له قصيدة أخري في هذا المجال بعنوان «مدرسة محمد علي الصناعيه»، أنشدها الشـــاعر حينما أقيمت مباراة شعرية في إحدي المجلات و هي مجلة «الإستقلال» للحض على إنشاء هذه المدرسة (على هامش الديوان، ١/٩٠) فأنشد قصيدةنالت جائزةَ المجلة، (ديوان محرم، ١/٩٠).

ليـــس الـــكريمُ بمن يســـري أوطائـــه نَهـــــبَ العـــــوادي، ثم لا يحميهـــا
سُـــبل المـــكارم للـــكرام قـــويمةٌ فَعـــلام يُخطِئُهـــا الـــــذي يبغـــــيها؟
و يـــحوي الكـــريمُ المـــالَ يبـــغي بـــه شيـــئاً سـوي اكـــرومةٍ يحويـــهـــا
والجـــودُ يُحمَـــدُ حيـــث كـــان، و خـــيره مـــا نـــال أوطـــانَ الفـــتي و بنيـــها

فهو يأسف و يحزن من ضعف مصر الصناعي، لأنّ الصناعة من دعائم الرقي و القوة، و لأنّ مصر عانت كثيراً من جهل أبنائها بالصناعة، و هو يستنهض عزمات بنيها ليجودوا بالمال على تعليم الصناعة، لأنّ الصناعة و العلم دواء مصر العليلة...

٤ـ نصح المصريين

كيف تنجو مصر من قيود الإحتلال؟ وكيف تصل إلى مجدها السابق؟ و كيف تسترد مكانتها؟

لا وسيلة إلى ذلك إلّا بالجهاد و المقاومة وكثيراً ما كررّ أحمد محرم دعوته إلى المقاومة و الجهاد.

و كم نراه يلوم الشعب الراكد الخانع، وكم يتغنى بالمجدالغابر ليثير به ارادة الحاضر و يحرك عواطفهم آملا بالنصر و النجاح في المستقبل.

فأبناء مصر هم المسؤولون عن شقائها، لأنّهم لم يبعدوا الكيد عنها، بل آثروا الدعة والخمول و تركوا الغاصب يفعل فيها ما يشاء بل يفعل بهم مايشاء.

و من ذلك قوله (ديوان محرم، ١/٦٦):

ألا إنّها مصرُ التي شَقَيَتْ بنا ... فيا وَيحَ مصر ما الذّي لقيت مصرُ
مضى عزّها القُدموس ما يستعيده ... بنوها فلا عِزّ لديهم و لا فَخرُ
هُمُ رَقَدُوا عنها فطال رُقادهم ... فُديتكم، هُبّوا فقد طلع الفجرُ
اما فيكم حُرّ اذا قام داعياً ... إلى صالحٍ أوفى فَحَاوبه حرُ؟

وهو يندد بالمصرين على صمتهم و سكوتهم، و يعجبُ من النيل كيف يفيض على شعب خامل، و لو أنّه جازى المصريين بما يستحقونه لَغاض ليموتوا عطشا. (ديوان محرم ١/٧٧)

و ما مصرُ إلاّ موطنُ نحنُ اهلهُ ... عزيز علينا أرضُهُ و سماؤه
بنى وَطَني لا تسخطوهُ عليكمُ ... فليس سواءً سُخطهُ و رِضاوه
بنى وَطني خَلّوا التّحاذل ... انّه بلاؤكُمُ يجتاحكم و بلاؤه

و يهيب بهم أن يرضوا و طنهم، لأنّ حالهم التي هم عليها محزنة مسخطة: (ديوان محرم، ١/٣٦)

عجـــبا لهـذا النـــيل كيـــف نَعُقُّـه و يـــَدوم منـــهُ البِـــرُ و الإكـــرامُ؟
لـــو كـــان يَجزينـــا بســـوء صـــنيعنا أودي بهاتيـــك النفـــوس أوام_الاوام(العطش)

و يدعو المصريين سنه ١٩٠٢ إلى الثورة دعوة صريحة اذ ينبههم إلى أنّ الإحتلال الجـاثم على صدر مصر عاقبة لِجهلهم بحقوقهم و واجباتهم ثم يهيب بهم أن يثوروا ليطردوا الغاصـبين من ديارهم و ينصحهم قائلاً، (ديوان محرم،١/٧٧)

يا أمـــة خـــاط الـــكرى اجفانهـا، هبّـــي فقـــد أوْدَتْ بـــكِ الأحـــلامُ
هبّـــي، فمـــا يحمـــي المحـــارمَ راقـــدٌ والمـــرءُ يُظلـــمُ غـــافلاً و يضـــامُ
هبّي، فمـــا يُغـــني رُقـــادُكِ و العِـــدى حَـــول الحمـــى مُســـتيقظون قيـــام
شـــيئان يـــذهب بالشُّـــعوب كلاهـــما نَـــومٌ عـــن الأوطـــانِ و استســـلامُ
الاّ يحـــن لـــلرّاقديـــــــنَ قيـــامُ فعلـــيهمُ و علـــى الدّيـــارِ ســـلامُ

٥_ المحتل و أذنابه

و لقد أبغض أحمد محرم الإحتلال البريطاني أشدَّ البغض و سخط على أعوانه أشدَّ السخط.

لذلك سمي يوم ١٤ أيلول سبتمبر، سنه ١٨٨٢ م، اليوم الذي دخلت فيه الجنود الإنجليـز مصر (المقدسي، ١٩٨٢، ص٤٠ و حسن الزيات،، ٢٠٠٥، ٣٠٩) يوم النحوس ثم تنبه إلى أنّ المصـريين ينحون باللوم على ذلك اليوم، و يُخلون أنفسهم من الملامه، و هم أولى بـاللوم و الملامـة، لِأنَّهُم عجزوا عن حماية ديارهم، ثم عجزوا عن الثورة في وجه المحتلين..

و من ذلك قوله في قصيدة بعنوان «يوم ١٤ سبتمبر» (ديوان محرم، ١/٣٤):

نلومكَ يـا يـومَ النُحـوسِ و نعـــذلُ و أنتَ علـى مـا أنـتَ تمضـي و تُقبـلُ
فلا نحن ما عشنا عـن اللّـوم نرعـــوي ولاأنـــت مـــا كـــر الجديـــدان تَحفِـــلُ

(نرعوي؛ نكفّ، و الجديدان اليل و النهار)

و نحسبُ أنّ الجـدَّ قـولٌ نُذيعـــــهُ ونحسبُ أنـّـــا فـــي المقالـة نهـــزل
لعمـرك مـا اسـلفتَ فينـا جـــريرة ولـــكنّ شعـــبا خامـــلاً نتـــعلّلُ
ظلمنـــاك، و الإنســـانُ بـــالظُلم مُولِـــعٌ فلـــيس و إن ناشَـــدتَه العـــدلَ يعـــدلُ

إلى أن يقول:

لحى الله قوماً حمّلونا مِنَ الأذى بما ضيّعُوا الأوطانَ ما ليس يُحْمَلُ
همُ خذلوها، فاستُبيح حريمها و ما بَرحت تبغي انتصاراً فتُخذَلُ

و كثيراً ماحمل على المحتل فهوتارة يندد بفظائعه، اذ يتخيل مصر مريضة منذ عشرين عاماً ـ منذ الإحتلال ١٨٨٢ إلى تاريخ القصيدة ١٩٠٢ و قدحار الناس في معرفة دائها، ولكن الأساة و الأطباء يعلمون داءها و دواءها و ما داؤها، إنّا الإستعمار و الإحتلال و ما دواؤها إلّا الإستقلال و الحرية (ديوان١/٧٧)

عشرون عاماً، و الديارُ مريضةٌ تتنابها الأدواءُ و الأسقامُ
إنّ الأساة لتعرفُ الدّاءُ الذي تتركَ المريض تذيبه الآلامُ

ثم لم يلبث أنّه يعود يائساً من الشفاء، لانّ الذين بيدهم الإصلاح هم الإنجليز أو أعوانهم و هم لايريدون لِمصر القوة و الإستقلال و لانّ أبناء مصرَ في نوم عميق فكيف تشفى مصر؟:

كيف الشفاء لمصر من أدوائها أم كيف يرجى عِزُّها و يرامُ؟
والمصلحون كما علمتَ، و أهلُها عنها على زَجرالمُهيبِ نيامُ؟

ثم يخاطب المحتل و يحمل عليه و يندد بوعوده الكاذبة، و يتبرم من إقامته الطويلة المملة:

يا دولةً رَفَعَت على أوطاننا عَلَماً تُنكّسُ تحتَهُ الأعلامُ
أينَ الموائيقُ التي أبرَمتِها إن كان منكِ لِمُوثقٍ ابرامُ
لم تحفلي بعهودنا فَنَقَضتِها يا هذه نَقضُ العهود حرامُ

و في قصيدة أخرى كذلك يندد بغدر إنجلترا و نقضها لوعودها و عهودها (ديوان، ١/٣٥٣) بقوله:

ما ذَكَرنا لكم من الخير شيئاً ما رَضِينا لكم على الدهر حالا
تَذكُرُ الحكم ظالماً مارأينا فيه عدلاً و لا وَجدنا اعتدالا
نذكر العَهد سَيئاً ماعرفنا فيه حرية ولا استقلالا
نذكر الشرَّ و البلاءَ جميعاً فاذكروا عهدَكم و شُدُّوا الرِّحالا

ثم ينذرهم بنهاية مشوؤمة تقضي على ملكهم، و تذيقهم الوبال و النكال:

طـــال عهـــد احـــتلالكم فحَسِـــبنا أن يـــومَ الحســـابِ يـــدعي احـــتلالا

٦ـ ذم الملوك و الحكام المستبدين

إنّ شاعرنا أحمد محرم لم يحمل على الإنجليز وحدهم، بل دفعته جرأته إلى أن ينطق حيث صمت الشعراء، و إلى أن يذم الملوك الفاسدين و يزري بهم و يندد بفسادهم منذ مطلع شبابه إلى آخرحياته، فقال في تصوير استبدادهم (ديوان ١/٢٢٦)

بَغتِ الملـوك علـى الشُّعوب و غَرَّهـا ممـن تسـوسُ تجـاوز و سمـاحُ
و اذا الملـوك تَنَكَّبـت سُـبلَ الهُـدي غَـوتِ الهـداةُ و ضَـلَّتِ النُصّـاحُ

و تحدث عن ظلمهم لشعوبهم فقال (ديوان ١/٤٤٢)

رأيـتُ ملـوك النـاس ينصـفونهم وخـيرُ الملـوك المُنصِـفُ المترفّـقُ
يقيمـون صَـرحَ الظُّلـمِ في كـل أمَّـةٍ إذا ملكـوا و العـدلُ بالملـكِ أخلـق

لقدعاش عدواً لِلملكية و الملوك و الحزبية السياسية، و للمحتل و أذنابه، و للرجعية و الإقطاع، حارب كل هذه الأركان المتداعية الواهية، و حاربته حتى لفظ أنفاسه، و لاقى ربه (عبد المنعم الخفاجي، ١/١٢٦). ومن ذلک قوله في قصيدة بعنوان «الشرف المزعوم» في معنى الرتب و الألقاب (ديوان محرم، ١/٩٢).

كـذب الملـوک و مـن يحـاول عـندهم شـرفاً و يـزعم أنّهـم شُـرَفاءُ
رُتَـبٌ و القـاب تغـرُّ و مابهـا فَخـرٌ لِمُحرزهـا، و لا اسـتعلاءُ
آناً تبـاعُ و تـارة هـي خِـدعةُ تُمـني بـشرَ سُـعاقها الأحـراء
ذَنـبُ الملـوکِ رمـى الشـعوب نكبـة جُلـي تنـوءُ بحمـلها الغـبراء
لا المجـد مجـدٌ بعـد مـا عَبَـثـت بـه ايـدي الملـوکِ و لا السـناءُ سـناء
مـالوا عـن الشـرف الصَّـميم، واحـدثوا مـا شـاءتِ الأوهـامُ و الأهـواء

إلى أن يقول:

لوجـاوَرَ الشـرفُ الملـوکَ لأورقَـتْ صُـمّ الصُّـخور وضـاءتِ الظّلمـاءُ
رفعـوا العُـروشَ علـى الـدماء و إنّمـا تبقـى السفينة مـا أقـامَ المـاءُ

و هو الذي لام الخديوي عباساًسنة ١٩٠٩، «حينما قيدت الحكومة حريـــة الصـــحافة و حاربت الحركة الوطنية (الدسوقي، ٢/٧٢) ويكون في لومه جريئاً صريحاً و يندد بعباس و خيانتـــه الوطنية لمصر و يتساءل عن سبب إنصرافه عن مُؤازرة الوطنيين و خيانته لمصر و يقول (ديـــوان محرم، ١/١٣١)

ماذا بـــدا لـــك فاعتزلـــتَ صُـــفوفَنا أفأصـــبحت حـــــربُ الغـــزاة ســـلاما
أنخون مصـــر، و مـــا تحـــوَّل نيلُـــــها سُـــمّاً و مـــا انقلـــب الضـــياء ظلامـــا؟

و عندما خضع الخديوي عباس للإنجليز و انصاع لأوامرهم، قد قال بيته المشهور يعـــرض بعباس و بمن قد سمن على دماء الشعب بينما صار الشعب هزيلا (الدسوقي٢/١٥٧):

رايـــتُ الشَـــعبَ و الأمثـــال جَـــــمّ علـــى مـــا كـــان مالِـــــكهُ يكـــون
و أعجـــبُ مـــا أرى شـــعبٌ نحيـــفٌ يســـــوسُ قطيعَـــــهُ راعٍ بَـــــدينُ

٧ـ حادثة دنشواي

في ١٣ حزيران يونيو ١٩٠٦ قصد خمسة من الضباط الإنجليز بلدة دنشواي بمصر لصـــيد الحمام، و هناك أصيب بعض الأهالي، فاصطدموا بالإنجليز و أصيب بعض الضباط باصاباتٍ، فاندفع أحدهم يجري تحت وهج الشمس حتى صرعته ضربة منها فثارت ثائرة اللورد كرومـــر عميدالدوله البريطانيه و عقدت المحكمة المخصوصة لمحاكمة الأهالي و قضت باعدام أربعة، و جلد و حبس ثمانية، و في ٢٨ حزيران/ يونيو نفّذ الإعدام و الجلد في نفس البلدة على مرأى و مسمع من أهلها (عبدالرحمن الرافعي، ١٩٨٦؛ الدسوقي، ١/٩٤)

و كان في هذا الحكم و تنفيذه من القسوة ما آثار نفوس المواطنين، و نبحـــث عـــن دور الشعر في هذه النكبة لِنتبين مدي الوطنية الصادقة عند شاعرنا أحمد محرم مشيرين إلى ما قاله في نفس القضية شوقي و حافظ ابراهيم اللذان اشتهرا بوطنيتهم. فنجد الشـــاعر أحمـــد شـــوقي «عندما وَقَعت حادثه دنشواي تجاهلها سنة كاملة، لانّ موقفه في هذا ينسجم مـــع موقـــف القصر، و هو لا يرغب في إغضابه و لا اغضاب الإنكليز إلّا أنّه بعد عام نظم مقطوعة سَمّاها (ذكري دنشواي). (د. واصف ابوشباب، ١٩٨٨م، ص٥٠ و الدسوقي، ٢/٩٤ و ديوان أحمد شوقي، ١٩٩٣ م. ص ١٤٥). اما حافظ ابراهيم فنجده يخاطب الإنجليز في ذلٍّ و خُشوعٍ (لمزيد من الإطلاع أنظر ديـــوان حافظ ابراهيم ١٩٩٨ م، ص١٣٩)

امّا أحمد محرم فلم ينتظر عاما كاملاً لينظم في حادثه دنشواي كمافعل شوقي و لم يخاطب الإنجليز في ذلٍ و خُشوع كما فعل حافظ ابراهيم، بل نقرأ في الوقت نفسه قصيدتين لشاعرنا محرم يقرع فيها الإنكليز و يزري بهم.. و القصيدة الأولى التي القاها في اليوم نفسه الذي نُفّذ الإعدام و الجلد فيه، أي ٢٨ حزيران/ يونيو، يبدأها الشاعر بوصف النكبات و الأهوال التي حلت بأهالي دنشواي و قسوة الإنجليز و وحشيتهم و يقول (ديوان محرم، ١/٩٦):

أتلك مصارع المستضعفينا؟ فما بالُ الهداة المصلحينا؟
أجيبي دنشواي، فإن تكوني عييتِ عن الجواب فما عيينا
هُمُ أخذوك بالنكبات حرّي و بالأهوال شتّى يرمّينا
تذوقين العذاب و هم نشاوى يغنّون المشانق ناعمينا
إذا طَربت أهابَ بِها مراحٌ تجاوَبه نفوس الهالكينا
تطوف بها الأرامل و اليتامى تضجّ و تذرفُ الدّمع السّخينا
و تعطفها السّياط على رجالٍ بمطرّح الهوانِ مُمَزَّقينا...
تعاورهم اكفّ القوم صرعى تطير جلودُهم مما لقينا

ثم يواجه الإنجليز بتصميم الأمة على النضال و الكفاح، و يذكر عهدهم البغيض و يتمنّى أن يراهم يشدّون الرّحال هم و أنصارهم من الخونة:

بني التاميز، كونوا كيف شئتم فلن ندع الكفاح، و لن نلينا
خذوا أنصاركم إنّا نراهم لنا و لِقومنا الدّاءُ الدفينا
هم الأعداءُ لسنا من ذويهم وليسوا في الشدائد من ذوينا
ذممنا عهدكم فمتى نراكم تشدون الرحال مودعينا
زعمتم أنّ موعدكم قريبٌ كذبتم أُمةً تحصي السّنينا

ونراه يصبّ فيها صواعقه و حممه على رؤوس المحتلين لايداري ولايوارب و لا يخاف من ردة فعل الإنكليز ضده، فلم يكن في ذلك الوقت ليحفل بهم أو يشفق على نفسه من بطشهم و ظلمهم.

هكذا يكون الأمر بالنسبة إلى القصيدة الثانية التي القاها الشاعر في أوّل شباط/ فبراير ١٩٠٨، و يقول فيها: (ديوان محرم، ١/١٠٩)

أهذا هو العـدل الـذي فيـه اطنبـــوا و راحَ به منهم: فَخُـــورٌ و مُعجَـــبُ؟
..أنسي و نُفوســـاً ازهقوهـا تشفـــياً و أخـرى غـدت في (دنشـواي) تُعَـذّبُ؟

نعم من غيرالمقبول أو المبرر لشاعر كأحمد محرم الّايقف إلى جانب الجماهير من شـعبه و يعيش آلامها و آمالها، و يعبرعن أمانيها و تطلعاتها... فالشاعر الملتزم لايمكن أن يضعف امـام السلطة مهما طغت و عمّ جبروتها بل إنّ شاعراً كمحرم بحكم رؤيتة الوطنية الصادقة لا بدَّ له من مواجهةِ الواقع بقسوته و الشعراء هم طليعة الشعب و التغاضي عن دورهـم الأصـلي في مواجهة القضايا التي تهم الشعب أو اكثرية افراده، ليس إلّا تنكراً لدور الشـاعر و رسـالته في المجتمع، فالخوف من السجن و من الإضطهاد، أمر يتنافى مع توجه الشاعر الملتزم بقضايا شعبه و مشاكل مجتمعه. و الشاعر الذي يفضل سلامة النفس و الجسد عليه ألّا يتصدي لمشـكلات الجماهير و من المستحسن أن ينسحب مبتعداً عن ساحة الصراع فلايواجه قـوى التسـلط و الطغيان، أو يكشف مواقع القهر و العسف في المجتمع و يكتفي بالعيش على هامش الحيـاة. و حسبه أن ينصفه التاريخ بعد موته، و أن يلقي الجزاء الأوفي عند ربّه.

علـى التـاريخ بَعـدَ المـوت حقـي و عنـدَاللهِ يَـوْمَ الـدِّينِ دَيـني

الميزات الفنيّة لوطنيات الشاعر

نعود مرة أخرى إلى قصائد الشاعر الوطنية و نشير إلى ما فيها من الصور البلاغيـة الـتي استخدمها الشاعر لكي يعبر عن عواطفه الوطنية الصادقة.

و اوّل ما يسترعي الـإنتباه في شعر محرم عامة وطنياته خاصة هو أن الشاعرقد يسـتخدم أسلوب النداء و الخطاب كي يؤثّر في قلوب السامعين؛ فنراه دائماً يجعل نفسه وجهـاً لوجـه مجتمعه و يناديهم و يخاطبهم ليذكرهم بأن مصرَ و حبَّها هو كلُّ شيء عنـده فيجـب أن لا ينسى المصريون ذلک و سبب ذلک يرجع إلى اعتقاده بأنّ لكل إنسان في حياته رسالة لا بـدَّ أن يؤدّيها،فهو دائماً يشعر بهذه الرسالة و يسعي في سبيل تحقيقها بأسـاليب مختلفـة، مـرة بأسلوب النداءِ حيث يقول:

فيـا نيـل أنـتَ المـني و الحيـاة و أنـت الأمـيرُ، و أنـتَ الأخ

و مرة يلجأ إلى السؤال و لكنّه لا يريد به الجواب، بل يريد لفت انتباه الآخرين و إيقاظهم من نومهم العميق تجاه ما يجري في بلدهم و وطنهم العريق؛ كما أنّه قد يستخدم أسلوب القصر ومن ذلک قوله:

أهذي ديارُ القوم غيَّرها الدَّهرُ فَعُوجوا عليها نبكها أيُّها السَّفر
أما فيكم حُرٌّ إذا قام داعياً إلى صالحٍ أوفى، فحاوبه حُرُّ؟

كما أنّه قد يستخدم أسلوب القصر حتى تمكن من اثبات اعتقاده وترسيخه في نفوس أبناء وطنه إمّا بالنفي و الإستثناء وإمّا بالتقديم و غير ذلک من طرق القصر المألوفة عند الأدباء. نحو:

و ما المرءُ إلاّ قومه و بلادهُ فإن يذهبا يلق الّذي حيثُ يَمَّما
مِنَ العارِ أن تشقى بلادي وأسلما وكالموتِ إن يقضي عليها و أنعما...

و أنّه لم يكتف بذلک،بل نراه يملأ قصائده بالتشبيهات و الإستعارات والكنايات حتى يتمكّن من تأدية رسالة يشعر بها طيلة حياته؛ وهو لا يتكلف في استخدام الصور البلاغية و البيانية بل يأتي بها طواعيةً و عن ذوق سليم واحساس مرهف.

وهو يشبه مصرَ بانسان مريض تنتابه الآلام و الأمراض التي استُعيرت للاستعمار و أعوانه فلا يرجى شفاء هذا المريض لأنّهم لا يريدون له شفاء وقوةً:

عشرون عاماً و الديار مريضةٌ تنتابها الأدواءُ و الأسقامُ
يقيمون صرح الظّلم في كل أمّةٍ إذا ملكوا و العدل بالملک أخلق
لو حاورَ الشرفُ الملوک لاَ ورقّت صُمُّ الصخور و ضاءَتِ الظلماءُ
و اعجبُ ما أرى شعب نحيفٌ يسوس قطيعَه راعٍ بَدينِ

الخاتمة

مما تقدم نستنتج:

اولاً: إنّ شاعرنا أحمد محرم امتاز بميزات ساعدته في تحطيم تلك الأرستقراطية الأدبية التي كانت في زمنه قد وصلت إلى أقصى حدودها، و هذه الميزات هي حريته السياسية اولاً و الفكرية ثانياً.

ثانياً: نتيجة لِما يعتقد به الشاعر من الحريّة السياسية و الفكريّة، نراه يقول ما يشاء في أيِّ باب يريد، و إلى أيِّ معنى يقصد، فمن سياسة إلى اجتماع إلى اخلاق إلى غير ذلك مما يجول

بخاطره و يقوم في نفسه دون أيِّ خوف و ترديد في عمله، نحو: ما أنشده في حادثة دنشواي، أو ما قاله في المحتل و أذنابه، أو في الإستبداد، و دعوته المصريين إلى الثورة ضد الإحتلال الجاثم على صدر مصر، و هو لم يكتف بذلك بل يحمل على الملوك الفاسدين و يذمهم و ينـدد بفسادهم، إلى غير ذلك من المواضع التي تدفعه فيها جرأته إلى أن ينطق حيث يصمت الشعراء الآخرون.

ثالثاً: إنّ الشاعر يُظهرلنا وطنيّته الصادقة و التزامه برسالته الوطنية بإهدائه الجزء الأول من ديوانه إلى النيل، في حين يُرى أنّ اكثر الكتاب و الشعراء يهدون مؤلفاتهم إلى ذوي الثـروة و الجاه، آملين في مؤازرتهم و الإنتفاع بهم. و هو انصرف عن ذلك و آثر أن يُهدي ديوانه إلـى الأب الأبر يعني النيل.

رابعاً: بقي محرم طيلة حياته في حرب عوانٍ مع الإستعمار و أذنابه مدافعاً عن وطنه و قومه و دينه غير مبالٍ بما يصيبه من ضررٍ، و ما يحلُّ به من أذيً و ظلم، و ما يلقاه مـن عنـت و حرمان. و حقاً أنّه هو شاعر الإسلام و الوطنية الصادقة، و مثال التضحية و الفداء و نكـران الذات.

خامساً: استخدم الشاعر للتعبير عن وطنيته الصادقه الأساليب البلاغية المختلفة كي يؤثّر في نفوس أبناء وطنه و يحرضهم على الدفاع عن وطنهم ويوقظهم من نومهم الطويل فيأتي بأشعاره في حلل بلاغيّة جميلة.

المصادر و المراجع

١. ابراهيم، حافظ (١٩٩٣)؛ **"ديوان"**، تهذيب و تعليق د. يحيي شامي، الطبعة الاولى، بيروت، دارصادر.

٢. ابوشادي، أحمد زكي، (١٩٩٢م)، **"قضايا الشعر المعاصر"**، الطبعة الاولى، القاهرة، الشركة العربية للطباعة و النشر.

٣. ابوشباب، د. واصف، (١٩٨٨م)، **"القديم و الجديد في الشعر العربي الحديث"**، بيروت، دارالنهضة العربية.

٤. الجيزاوي، سعدالدين، (١٩٦٤م)، **"العامل الديني في الشعر المصري الحديث"**، القاهرة، المجلس الأعلى لرعايه الفنون.

٥. حسين، محمد، **"الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر"**، القاهرة، مكتبة الأدب.

٦. خفاجي، محمدعبدالمنعم، (١٩٩٢م)، **"دراسات في الأدب العربي الحديث و مدارسه"**، الطبعة الأولى، بيروت، دارالجيل.

٧. الدسوقي، عمر، (٢٠٠٣م)، **"في الأدب الحديث"**، الطبعة الأولى، القاهرة، دارالفكر.

٨. الرافعي، عبدالرحمن، (١٩٨٦م)، **"مصطفي كامل"**، بيروت، دارالعودة.

٩. الزيات، أحمد حسن، (٢٠٠٥م)، **"تاريخ العربي للمدارس الثانوية والعليا"**، الطبعة التاسعة، بيروت، دارالمعرفة.

١٠. شوقي، أحمد، (١٩٩٣م)، **"ديوان"**، الطبعة الأولى، بيروت، دارصادر.

١١. ضيف، شوقي، (١٩٥٧م)، **"الأدب العربي المعاصر في مصر"**، القاهرة، دارالمعارف.

١٢. قبش، أحمد: **"تاريخ الشعر العربي الحديث"**، بيروت، دارالجيل.

١٣. كحالة، عمررضا، (١٩٥٧م)، **"معجم المولفين"**، دمشق، مطبعه الترقي.

١٤. محرم، أحمد، (١٩٨٤م)، السياسيات، **"تحقيق محمود أحمد محرم"**، الطبعة الأولى، الكويت، مكتبة الفلاح.

١٥. المقدسي، أنيس، (١٩٨٢م)، **"الإتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث"**، الطبعة السابعة، بيروت، دارالعلم للملايين.